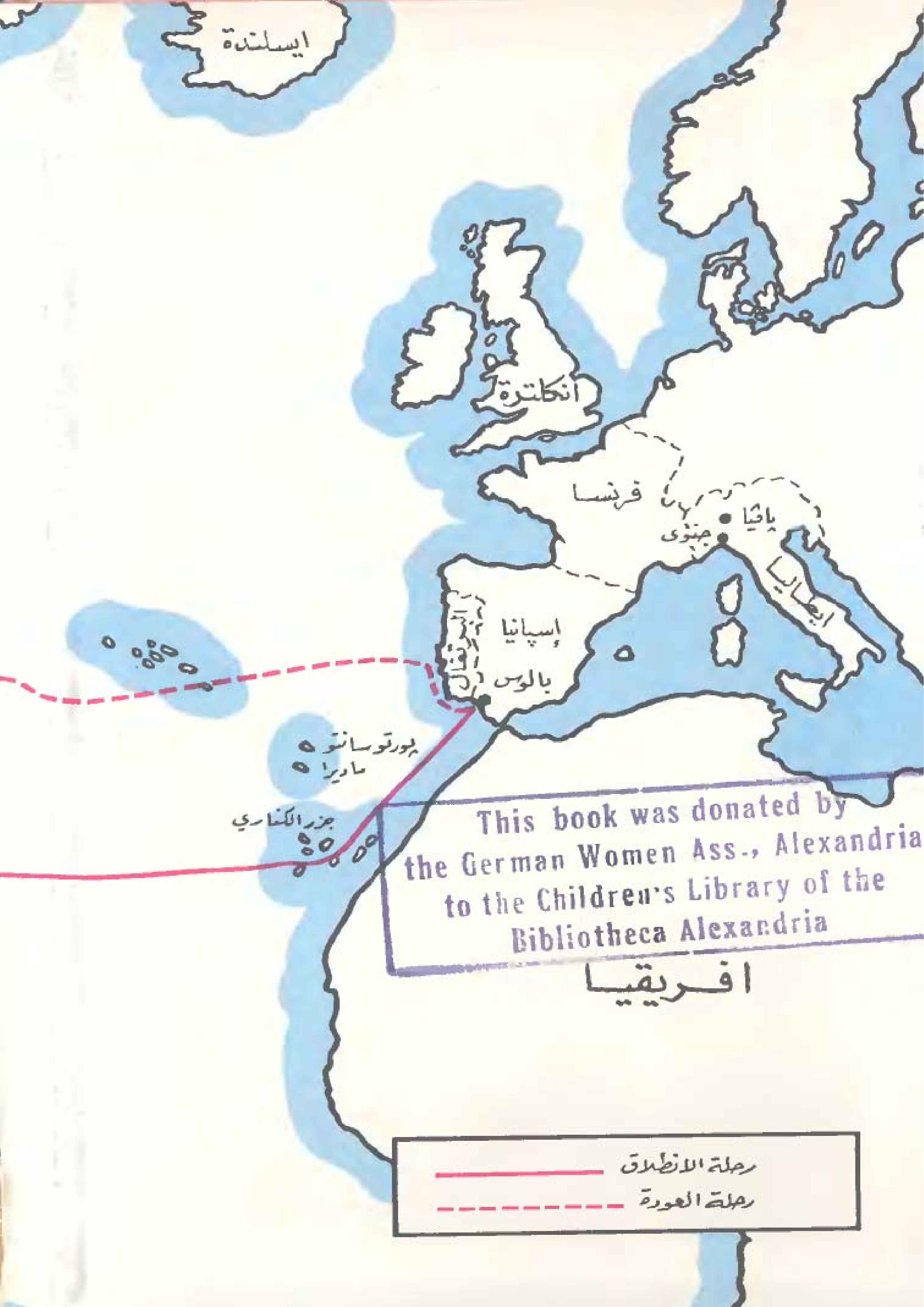

كريستوفر
كولمبس
السلسلة التاريخية



This book was donated by
the German Women Ass., Alexandria
to the Children's Library of the
Bibliotheca Alexandria

الرّحلة الأولى

لكريستوفر كولمبُس

امريكا
الشمالية

المحيط
الاطلسي

سان سلفادور
كوبا
سان دومنجو
جزر الهند الغربية

المحيط
الباسيفيكي

امريكا
الجنوبية

مكتبة الاسكندرية

عِنْدَما أَقْلَعَتْ ثَلاثُ سُفُنٍ مِنْ پالوسَ عامَ ١٤٩٢ ، غَيَّرَتْ مَجْرَى التّاريخِ . وهذِهِ قِصَّةُ **كريستوفر كولُمْبُسَ** ، الرَّجُلِ الّذي قادَ تِلْكَ السُّفُنَ ، وقِصَّةُ أَعْظَمِ رِحْلَةٍ بَحْرِيَّةٍ ، ذاتِ شَأْنٍ عَظيمٍ ، قامَ بِها الإِنْسانُ .

© حُقوق الطبْع محفوظة
طُبِعَ في انكلترا
١٩٨٠

كريستوفر كولمبس

بقلم : ل. دوغارد پيتش

نقله الى العربيّة : محمّد العدناني

وَضع الرسوم : جون كيني

This book was donated by
the German Women Ass., Alexandria
to the Children's Library of the
Bibliotheca Alexandria



BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

مكتبة لبنان

كريستوفر كولُمْبُس

عِنْدَما أَقْلَعَ كريستوفر كولُمْبُسُ مِنْ مَرْفَإِ بالوسَ الصَّغيرِ في إسبانيا ، في الثّالِثِ مِنْ شَهْرِ آبَ ، عامَ ١٤٩٢ ، بَدَأَ بِرِحْلَةٍ بَحْرِيَّةٍ غَيَّرَتْ مَجْرَى التّاريخِ .

رُبَّما كانَتْ هذِهِ قِصَّةَ واحِدَةٍ مِنْ أَشْهَرِ حَوادِثِ التّاريخِ أَهَمِّيَّةً في تاريخِ الإِنْسانِ الطَّويلِ كُلِّهِ .

وُلِدَ كريستوفَر كولُمْبُسُ في مَدينَةِ جَنَوى الإيطالِيَّةِ بَيْنَ عامَيْ ١٤٤٠ — ١٤٥٠ ؛ لِأَنَّ تاريخَ ميلادِهِ غَيْرُ مَعْرُوفٍ بِدِقَّةٍ . وجَنَوى مَدينَةٌ ذاتُ ميناءٍ ، ويُفْتَرَضُ أَنَّ كولُمْبُسَ لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَدْ قَضى كَثيرًا مِنْ وَقْتِهِ في الميناءِ ، مُراقِبًا السُّفُنَ وهِيَ تَأْتي وتَذْهَبُ ، ومُتَحَدِّثًا مَعَ البَحّارَةِ .

كانَتْ سُفُنُ تِلْكَ الأَيّامِ سُفُنًا شِراعِيَّةً طَبْعًا ، وأَصْغَرَ جِدًّا مِنْ سُفُنِ اليَوْمِ البُخارِيَّةِ ، صُبِغَتْ بِأَصْباغٍ زاهِيَةٍ ، ونُصِبَتْ عَلَيْها أَشْرِعَةٌ مُلَوَّنَةٌ ، وَلِكُلٍّ مِنْها مُؤَخَّرٌ عالٍ ، وسُورٌ ذُو شُرُفاتٍ أَحْيانًا كالقِلاعِ البَرِّيَّةِ .

أَبْحَرَتْ بكولُمْبُسَ سَفينَةٌ مِثْلُ هذِهِ ، في رِحْلَتِهِ البَحْرِيَّةِ الاَكْتِشافِيَّةِ الكُبْرى ، بَعْدَ أَرْبَعينَ عامًا مِنْ مَوْلِدِهِ .



لا نَعْرِفُ إِلا شَيْئًا قَلِيلًا جِدًّا عَنْ طُفُولَةِ كُولُمْبُسَ . وقَـدْ جـاءَ في كِتاب ، أَلَّفَهُ ٱبْنُهُ عَنْهُ ، أَنَّهُ كانَ تِلْميذًا في جامِعَةِ بافيا ، بَيْنَما ذَكَرَ كولُمْبُسُ نَفْسُهُ أَنَّهُ كانَ بَحّارًا في الرّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهِ .

يُرَجَّحُ أَنَّهُ كانَ بَحّارًا في تِلْكَ السِّنِّ ؛ لِأَنَّ الشُّبّانَ في تِلْكَ الأَيّامِ كانُوا يَقُومُونَ بِأَعْمالٍ كَثِيرَةٍ ، قَبْلَ أَنْ يَسْتَقِرُّوا في إِحْدَى الحِرَفِ . أَمّا أَبُوهُ فكانَ حائِكًا ، ولا بُدَّ أَنْ يَكُونَ كريستوفَرُ قَدْ ظَلَّ فَتْرَةً مِنَ الزَّمَنِ يُمارِسُ مِهْنَةَ الأُسْرَةِ .

ولا نَعْرِفُ الأَسْبابَ الّتي جَعَلَتْهُ يَتْرُكُها ، ولكِنَّ سِرَّ البَحْرِ العَجيبَ قَدْ أَثَّرَ في نَفْسِهِ تَأْثيرًا شَديدًا ، جَعَلَهُ يَفْتَتِنُ بِهِ . وكانَ النّاسُ في تِلْكَ الأَيّامِ لا يَعْرِفُونَ شَيْئًا عَنِ البِحارِ ، يَتَجاوَزُ بِضْعَةَ أَمْيالٍ عَنِ الشّاطِئِ .

إِنَّ الرِّحْلاتِ الّتي قامَ بِها كولُمْبُسُ بَلَغَ بِها شاطِئَ أَفْريقيا الغَرْبِيَّ ، حَيْثُ كادَ القَراصِنَةُ أَنْ يَأْسِرُوهُ ، ووَصَلَ شَمالًا إِلَى شَواطِئِ إِسبانيا وفَرَنْسا . وزارَ إِنْكِلترا ، ويُرَجَّحُ أَنَّهُ أَبْحَرَ شَمالًا حَتَّى بَلَغَ إِيسلَنْدَةَ .



في عامِ ١٤٧٩ تقريبًا ذَهَبَ كولمُبسُ لِيَعيشَ في جَزيرَةِ بورتو سانْتو ، الّتي تَجِدُها عَلَى الخَريطَةِ قُرْبَ مادَيْرا ، والّتي كانَتِ البُرْتُغالُ تَمْلِكُها .

وقَدْ حَدَثَتْ هُنا أَشياءُ كَثيرَةٌ ، ساعَدَتْ كولمُبسَ عَلَى أَنْ يَعْقِدَ النِّيَّةَ عَلَى اكْتِشافِ الأُوقيانوسِ المَجْهُولِ غَرْبًا .

كانَ أَوَّلَ تِلْكَ الأَشْياءِ تَزَوُّجُهُ ابْنَةَ رَجُلٍ اسْمُهُ بارثولوميو بِرِسْتِرِلُو ، وَهُوَ رُبّانٌ بَحْرِيٌّ مَشْهُورٌ ، وبَحّارٌ ذائِعُ الصِّيتِ . وقَدْ أَخَذَ كولمُبسُ مِنْ حَميهِ خَرائِطَ وآلاتٍ بَحْرِيَّةً ، وتَعَلَّمَ مِنْهُ كُلَّ ما كانَ مَعْرُوفًا في ذلِكَ العَصْرِ عَنِ الرِّياحِ ، والتَّياراتِ البَحْرِيَّةِ غَرْبَ مادَيْرا .

كانَ كولمُبسُ يَحْصُلُ عَلَى مَعاشِهِ آنذاكَ بِرَسْمِ خَرائِطَ بَرِّيَّةٍ وبَحْرِيَّةٍ ونَسْخِها . وبالطَّبْعِ كانَتْ هذِهِ غَيْرَ كامِلَةٍ ؛ لِأَنَّ الأَمريكَتَيْنِ الشَّمالِيَّةَ والجَنُوبِيَّةَ لَمْ تَكُونا عَلَيْها .

لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَعْلَمُ ماذا يُوجَدُ بَيْنَ جَزيرَةِ بورتو سانتو وبَيْنَ اليابانِ . وعِنْدَما نَظَرَ كولمُبسُ إِلَى خَرائِطِهِ البَحْرِيَّةِ ، ثُمَّ حَدَّقَ في الأُوقيانوسِ ، كانَ راغِبًا جِدًّا في اكتِشافِ ذلِكَ .



عَرَفَ كولمبُسُ أَنَّ الأَرْضَ كُرَوِيَّةٌ ، أو هُوَ – عَلَى الأَقَلِّ – اعتَقَدَ ذلِكَ . ولَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مُوقِنًا بِهِ ؛ لِأَنَّها لَمْ يَدُرْ حَوْلَهَا أَيُّ إِنْسانٍ ؛ ولكِنَّ كولمبُسَ ظَنَّ أَنَّهُ إذا أَبْحَرَ غَرْبًا وَصَلَ إِلَى اليابانِ ، الَّتي وَصَلَ إِلَيْها مُكتَشِفُونَ آخَرُونَ بالسَّفَرِ شَرْقًا في البَرِّ والبَحْرِ .

لَمْ تَكُنْ لَدَى أَحَدٍ أَيَّةُ فِكْرَةٍ عَنْ وُجُودِ قَارَّةٍ كَبِيرَةٍ بَيْنَهما . ولكِنَّ النّاسَ عَرَفُوا أَنَّهُ لا بُدَّ مِنْ وُجُودِ أَرْضٍ في الجِهَةِ الغَرْبِيَّةِ ، تَدُلُّ عَلَيْها الأَشْياءُ الغَريبةُ ، الَّتي كانَتْ تُلْقَى عَلَى شَواطِىءِ ماديْرا وبورتو سانتو عِنْدَ هُبُوبِ الرِّيحِ الغَرْبِيَّةِ .

كانَ كولمبُسُ يَقْضِي كَثيرًا مِنْ وَقْتِهِ في التَّحَدُّثِ إِلَى البَحّارَةِ في المَرْفَأِ ، حَيْثُ أَرَوْهُ قِطَعًا غَرِيبَةً مِنَ الخَشَبِ المَحْفُورِ والقَصَباتِ الضَّخْمَةِ ، الَّتي يَتَّسِعُ كُلُّ مَقْطَعٍ مِنْها لِغالُونٍ (نَحْو ٢/١ ٤ لِيترات) مِنَ الماءِ .

لَمْ يَرَ أَحَدٌ مِثْلَ تِلْكَ الأَشْياءِ مِنْ قَبْلُ ، لِذا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ قَدْ أَتَتْ مِنْ أَرْضٍ مَجْهُولَةٍ عَبْرَ البَحْرِ .



قَرَّرَ كولمبُسُ الإبْحارَ غرْبًا بَحْثًا عَنْها . ولكِنَّهُ كانَ رَجُلًا فَقِيرًا ، ويَحْتاجُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ إلَى شَخْصٍ يُزَوِّدُهُ بِسَفِينَةٍ .

فَطَلَبَ مِنْ مَلِكِ البُرْتُغالِ تَزْوِيدَهُ بِها . فأَصْغَى المَلِكُ بِعنايَةٍ إلَى ما كانَ كولمبُسُ يُرِيـدُ قَوْلَهُ ، ولكِنَّـهُ رَفَضَ مُساعَدَتَـهُ . ولكِنَّهُ ، دُونَ أَنْ يُخْبِرَ كولمبُسَ ، أَرْسَلَ سَفِينَةً مَمْلُوءَةً بِبَحّارَتِهِ ، لِكَيْ يَجِدُوا الأَرْضَ الغَنِيَّةَ ، الَّتِي تَحَدَّثَ عَنْها كولمبُسُ ، ويُطالِبُوا بِها .

كانَ هذا العَمَلُ الَّذي قـامَ بِهِ مَلِكُ البُرْتُغالِ عَمَلًا دَنِيئًا جِدًّا ، ولكِنَّهُ لَمْ يَأْتِهِ بِفائِدَةٍ ؛ لِأَنَّ بَحّارَتَهُ ، بَعْدَ أَنْ قَضَوْا بِضْعَةَ أَيّامٍ في البَحْرِ ، جَبُنُوا وعادُوا .

فعِنْدَما سَمِعَ كولمبُسُ أَنَّ المَلِكَ قَدْ خَدَعَهُ ، تَرَكَ البرتغالَ وذَهَبَ إلَى إسبانيا .

لَيْسَ مِنَ السَّهْلِ عَلَى رَجُلٍ فَقِيرٍ الفَوْزُ بِمُقابَلَةِ مَلِكِ إسـبانيـا ومَلِكَتِها . اِنْتَظَرَ كولمبُسُ عامَيْنِ ، ثُمَّ سُمِحَ لَـهُ بالـدُّخُولِ إلَى البَلاطِ ، فَدَخَـلَ وأَمَلُهُ كَبِيرٌ في أَنَّ بَحْثَهُ عَنْ سَفِينَةٍ قَد أَثْمَرَ .



كانَ مُخْطِئًا ، لِأَنَّ مَلِكَ إِسْبانيا كانَ في ذلِكَ الوَقْتِ يُحـارِبُ المَغـارِبَةَ ، الّذينَ كانُوا قَدِ احْتَلُّوا بِلادَهُ . ومَعَ أَنَّهُ رَحَّبَ تَرْحيبًا حَسَنًا بكولمُبسَ ، حِينَ زارَهُ ، إِلا أَنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ سِوَى تَأْليفِ لَجْنَةٍ ، لِكَيْ تُشيرَ عَلَيْهِ بِمُساعَدَةِ كولمبسَ أَوْ عَدَمِ مَساعَدَتِهِ .

كانَتْ تِلْكَ اللَّجْنَةُ مُؤَلَّفَةً مِنْ نُبَلاءَ إسبانِيّينَ وكُهّانٍ . وقَدْ ظَلَّ كولمُبسُ يُناقِشُهُمْ أَيّامًا وأَسابيعَ ، ويَنْتَقِلُ مِنْ بَلَدٍ في إسبانيا إِلَى بَلَدٍ آخَرَ ، عِنْدَما تَنْتَقِلُ اللَّجْنَةُ إِلَيْهِ .

لَمْ تَكُنِ اللَّجْنَةُ في عَجَلَةٍ مِنْ أَمْرِها . وبَعْضُ أَعْضائِها أَبَوْا أَنْ يُصَدِّقُوا أَنْ الأَرْضَ يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ كُرَوِيَّةً . وقالَ الأَعْضـاءُ الآخَرُونَ : « إِذا كانَتِ الأَرْضُ كُرَوِيَّـةً ، فإِنَّ كولمُبسَ سَيُبْحِرُ نُزولًا ، وما دامَ مِنَ المُسْتَحيلِ عَلَى السَّفينَةِ أَنْ تُبْحِرَ صُعُودًا ، فإِنَّـهُ لَنْ يَرْجِعَ أَبَدًا . »

ولَمْ تُعْطِ اللَّجْنَةُ قَرارَها إِلا بَعْدَ مُرُورِ أَرْبَعِ سَنَواتٍ طويلَةٍ . وقَدْ جاءَ في ذلِكَ القَرارِ المُرْسَلِ إِلَى المَلِكِ ، أَنَّ الرِّحْلَةَ الّتي اقْتَرَحَها كولمُبسُ كانَتْ عَبَثًا وغَيْرَ عَمَلِيَّةٍ .



لَمْ يُضِعْ كولمْبُسُ وَقْتَهُ عَبَثًا خِلالَ تِلْكَ السَّنواتِ الأَرْبَعِ. ولا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ قَدْ رَأَى كَيْفَ تَسِيرُ الأُمُورُ، فَقَرَّرَ أَنْ يَبْحَثَ عَنْ وَسيلَةٍ، يَفُوزُ بِها بِسَفِينَةٍ مِنْ مَكانٍ آخَرَ.

كانَ مَلِكُ البرتُغالِ قَـدْ رَفَضَ مُساعَدَتَهُ، وكانَتْ لَجْنَةُ مَلِكِ إسبانيا تَضَعُ في طَريقِهِ جَميعَ العَراقيلِ. ولَمْ تَكُنْ إسبانيا والبُرتُغالُ هُما البَلَدَيْنِ الوَحيدَيْنِ، اللَّذَيْنِ لَهُما سُفُنٌ وبَحّارَةٌ أَقْوِياءُ.

كانَ لِكولمْبُسَ أَخٌ اَسْمُهُ بارثولوميو، الّذي اتَّفَقَ مَعَ أَخيهِ عَلَى أَنْ يَذْهَبَ هُوَ إِلَى إِنْكِلترا طالِبًا مُساعَدَتَها، بَيْنَما يَبْقَى كريستوفَرُ في إسبانيا لِمُناقَشَةِ اللَّجْنَةِ.

كانَ قَدْ مَضَى عَلَى اَرْتِقاءِ هنري السّابِعِ، أَوَّلِ مُلُوكِ إِنْـكِلترا التّيودوريِّـين، ثَلاثَـةُ أَعْوامٍ. كانَ رَجُـلًا حَذِرًا، وحَريصًا عَلَى المالِ، ومَعَ أَنَّهُ اَسْتَقْبَلَ بارثولوميو، وأَصْغَى إِلَيْهِ مُدَّةً طَويلَةً، فقَـدْ رَفَضَ البَحْثَ عَنْ سُفُنٍ لِلرِّحْلَةِ، الّتي رَأَى أَنَّهـا رِحْلَةٌ لا تُبَشِّرُ بالنَّجاحِ.

ولَوْ كانَ هنري السّابِعُ أَقَلَّ حَذَرًا، لَكانَتْ أميركا الجَنُوبِيَّةُ قَـدْ أَصْبَحَتْ مُسْتَعْمَرَةً إِنْكِليزِيَّـةً.



أَخْبَرَ بارثولوميو أَخاه كولمبُسَ بِخَيْبَةِ مَسْعاهُ ، ثُمَّ عَبَرَ البَحْـرَ إلَى فَرَنْسا ، لِيَطْلُبَ المُساعَدَةَ مِنْ شارلَ السّابِـعِ . وهُنـاكَ رُفِضَ طَلَبُهُ أَيْضًا .

أَمّا في إِسبانيا فقَدْ كانَ كولمبُسُ نَفْسُهُ يائِسًا ؛ لِأَنَّ اللَّجْنَةَ الثّانِيَةَ الّتي عَيَّنَتْها المَلِكُ أَيَّدَتْ قَرارَ الرَّفْضِ الّذي أَصْدَرَتْهُ اللَّجْنَةُ الأُولَى . حَدَثَ ذلِكَ في عامِ ١٤٩١ .

ولمّا اعْتَقَدَ كولمبُسُ أَنْ لا أَمَلَ لَهُ في الحُصُولِ عَلَى المُساعَدَةِ مِنْ إسبانيا ، سافَرَ إلَى فَرَنْسا لِيَنْضَمَّ إلَى أَخيـهِ . وفي الطَّريقِ اسْتَراحَ في دَيْرٍ قُرْبَ بالوس ، حَيْثُ كانَ استُقْبِلَ بِتَرْحابٍ مُنْذُ بِضْعِ سَنَواتٍ . وقَدْ ظَهَرَ أَنَّ مُكُوثَهُ في دَيْرِ لا رابيدا كانَ نُقْطَةَ التَّحَوُّلِ في حَظِّهِ .

كانَ في ذلِكَ الدَّيْرِ راهِبٌ اسْمُهُ جوانُ بيريزُ ، وَكـانَ قِسِّيسًا خاصًّا لِمَلِكَةِ إسبانيا . لَقَدْ آمَنَ بِأَقْوالِ كولمبُسَ ، وقَبِلَ أَنْ يَكْتُبَ رِسالَةً إلَى المَلِكَةِ ، ويَطْلُبَ مُساعَدَتَها .

فَنَتَجَ عَنْ ذلِكَ ما لَمْ يَكُنْ في حُسْبانِ كولمبُسَ ؛ إذْ أَرْسَلَتِ المَلِكَةُ لَهُ مَبْلَغًا مِنَ المالِ ، لِكَيْ يَشْتَرِيَ بِهِ ثِيابًا فاخِرَةً وجَوادًا ، ويَأْتِيَ فَوْرًا لِرُؤْيَتِها .

أَصْبَحَ الأَمْرُ الآنَ لا يَحْتاجُ إلَى اللِّجانِ .



اِستقبلتِ المَلِكَةُ إيزابيلُ كولمبُسَ وَحْدَها ، وأَظْهرتِ اهتمامًا شَديدًا بخُطَطِهِ . ثُمَّ اَستُقْبِلَ في البَلاطِ المَلَكِيِّ ، وظَهَرَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَسيرُ لِمَصْلَحَتِهِ .

وُعِدَ كولمبُسُ بِسُفُنٍ لِلقِيامِ بِمُغامَرَتِهِ . ثُمَّ فَجَّرَ اَستِياءَهُ مِنَ الاَنْتِظارِ الَّذي دامَ سَبْعَ سَنَواتٍ ، بِأَنْ طَلَبَ مُكافَآتٍ مِنَ المَلِكِ والمَلِكَةِ ، اللَّذَيْنِ اَعتَبَراها غَيْرَ مَعْقُولَةٍ أَبَدًا . ومِنْ بَيْنِها وُجُوبُ تَرْقِيَتِهِ فَوْرًا إِلى رُتْبَةِ أَميرِ البَحْرِ (أَميرال) ، وإِعْطاؤُهُ عُشْرَ الثَّرْوَةِ الَّتي سَتُجْنَى مِنَ الأَراضِي الَّتي سَيَكْتَشِفُها .

رُفِضَتْ شُرُوطُهُ ، فَاَنْطَلَقَ في الحالِ ، مَرَّةً ثانِيَةً لِلاَنْضِمامِ إِلى أَخِيهِ في فَرَنْسا . وما كادَ يَسيرُ سِتَّةَ أَمْيالٍ ، حَتَّى أَدْرَكَهُ رَسُولُ المَلِكِ . لَقَدْ قُبِلَتْ شُروطُهُ .

فَأَدارَ كولمبُسُ رَأْسَ جَوادِهِ ثانِيَةً شَطْرَ البَلاطِ المَلَكِيِّ . وأَصْبَحَ كُلُّ شَيْءٍ الآنَ مُهَيَّأً لِلرِّحْلَةِ البَحْرِيَّةِ ، الَّتي فاقَتْ بِنَتائِجِها الباهِرَةِ كُلَّ ما أَنْجَزَهُ أَيُّ إِنْسانٍ .



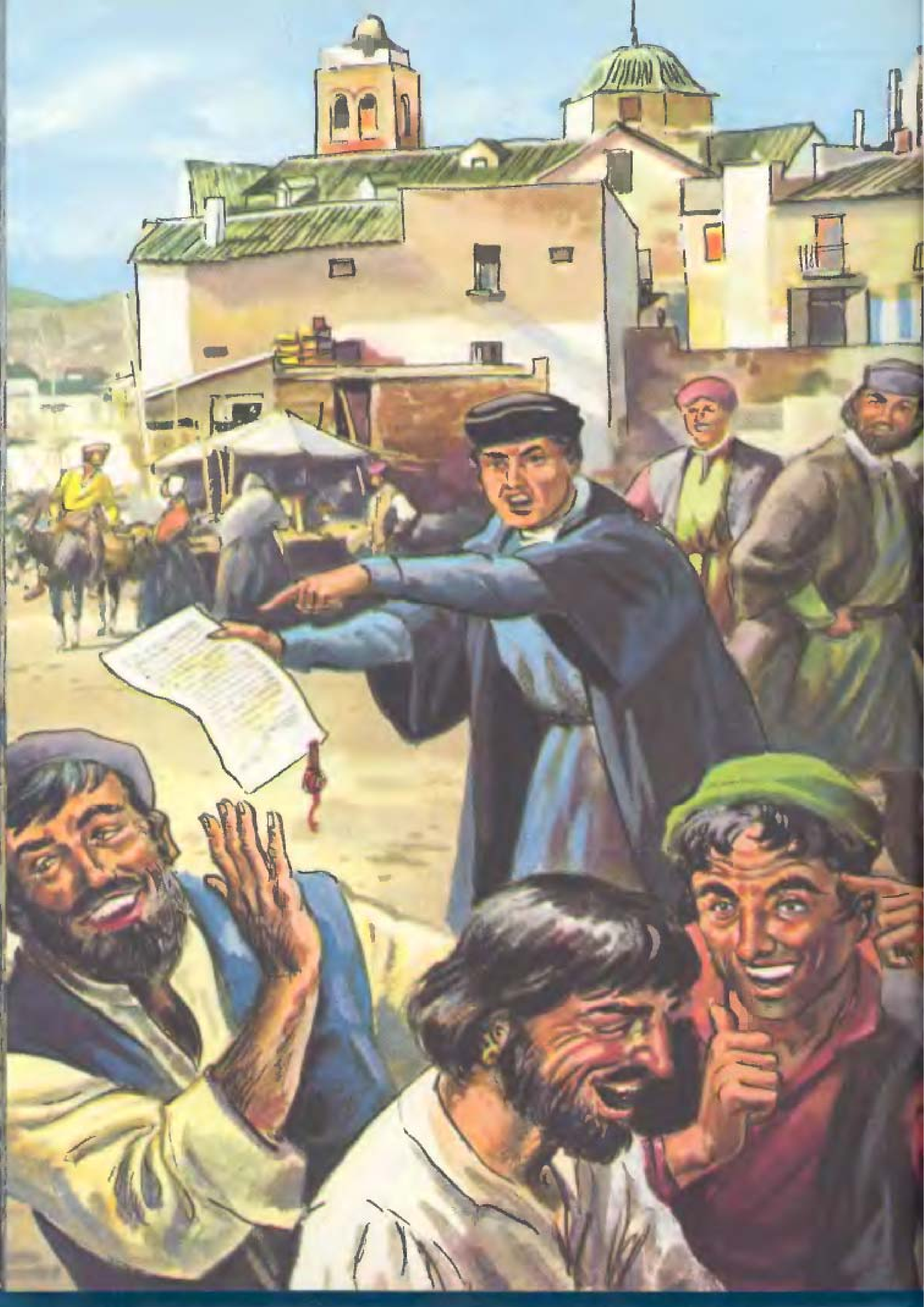
أَيْقَنَ كُولُمْبُسُ الآنَ أَنَّهُ سَيَحْصُلُ عَلَى السُّفُنِ الَّتي طَلَبَها ، ولكِنْ دُونَ أَنْ يُكَلِّفَ ذلِكَ مَلِكَ إِسبانيا ومَلِكَتَها شَيْئًا .

كانَ سُكّانُ مَرْفَإِ بالوسَ يَرْزَحُونَ تَحْتَ الغَضَبِ المَلَكِيِّ ، لِعَدَمِ دَفْعِهِمُ الضَّرائِبَ ، فَفُرِضَتْ عَلَيْهِمُ الغَراماتُ المالِيَّةُ الباهِظَةُ . وكانَتِ العادَةُ في إِسبانيا ، في ذلِكَ الوَقْتِ ، أَنْ تُفْرَضَ العُقُوبَةُ ، في مِثْلِ تِلْكَ الظُّرُوفِ ، عَلَى البَلْدَةِ كُلِّها ، لا عَلَى الأَفْرادِ . لِذا فُرِضَ عَلَى بالوسَ أَنْ تُزَوِّدَ كولُمْبُسَ بِثَلاثِ سُفُنٍ ، وأَنْ تُمِدَّها بالرِّجالِ عَلَى نَفَقَتِها أَيْضًا .

كانَتْ بالُوسُ بَعِيدَةً جِدًّا عَنِ البَلاطِ المَلَكِيِّ ، والبَـلْدَةُ الَّتي رَفَضَتْ أَنْ تَدْفَعَ الضَّرائِبَ ، قادِرَةٌ أَيْضًا عَلَى رَفْضِ الأَمْرِ الصّادِرِ لَها بِأَنْ تَجِدَ السُّفُنَ . كانَ ٱحْتِجاجُ كولُمْبُسَ وغَضَبُهُ عَلَيْهِمْ دُونَ فائِدَةٍ . وعِنْدَما أَبْرَزَ لَهُمُ الرَّقَّ (جِلْد رقيق يُكْتَبُ فيهِ) ، الَّذي كُتِبَتْ عَلَيْهِ أَوامِرُ المَلِكِ هَزَأُوا بِهِ .

ومَعَ أَنَّ السُّفُنَ الَّتي في المَرْفَإِ كانَتْ كَثيرَةً ، فقَدْ زَعَمُوا أَنَّها لَيْسَ بَيْنَها سَفِينَةٌ واحِـدَةٌ صالِحَةٌ لِمِثْلِ تِلْكَ الرِّحْـلَةِ المَجْنُونَـةِ إِلَى المَجْهُولِ .

بالرُّغْمِ مِنْ جَميعِ الصُّعُوباتِ الَّتي تَغَلَّبَ كولُمْبُسُ عَلَيْها ، والسَّنَواتِ الطَّوِيلَةِ الَّتي ٱنْتَظَرَ فِيها ، ظَهَرَ لَهُ أَنَّ تَحْقِيقَ رَغْبَتِهِ لا يَزالُ بَعِيدًا جِدًّا .



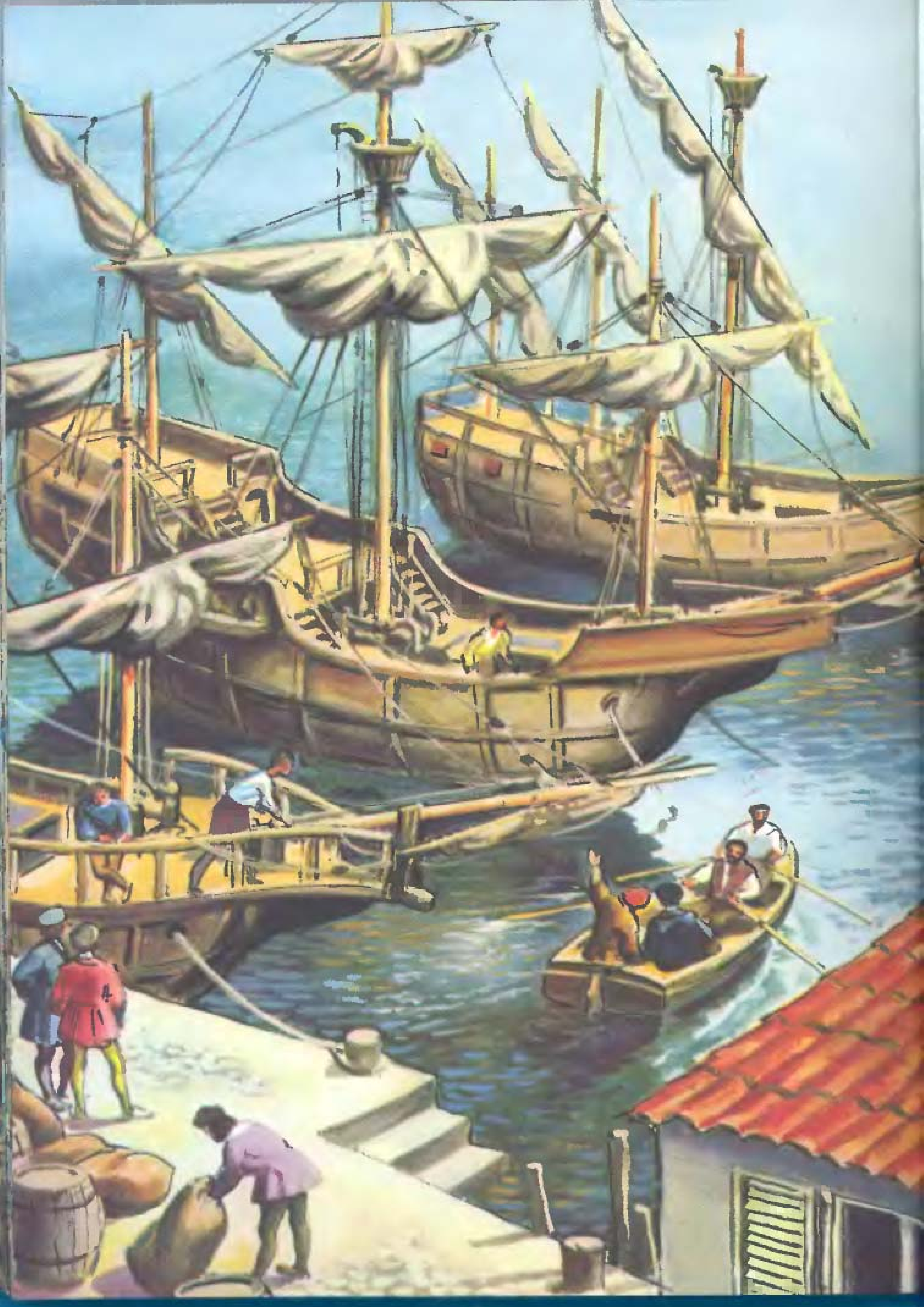
ثُمَّ حالَفَ الحَظُّ كولمْبُسَ ، بَعْدَما أَصْبَحَتْ آمالُهُ تَلْفِظُ أَنْفاسَها الأَخيرَةَ .

كان قَدْ تَعَرَّفَ في بالوسَ إلَى رُبّانَيْنِ شَقيقَيْنِ ، كانَتْ أَهَمِّيَّتُهُما الكُبْرَى في أَنَّهُما يَمْلِكانِ سُفُنًا ، واسْماهُما مارتِن آلونزو بِنْزُونُ وفيسنت يانز بِنْزونُ .

وأَخيرًا حَصَلَ عَلَى ثَلاثِ سُفُنٍ صَغيرَةٍ بِمُساعَدَتِهِما . وكانَتْ أَسْماؤُها : « سانْتا ماريّا » وهِيَ أَكْبَرُ الثَّلاثِ ، و « بِنْتا » ، وَ « نينا » . لَقَدْ قُدِّرَ لِهذِهِ السُّفُنِ الثَّلاثِ أَنْ تُصْبِحَ أَكْثَرَ السُّفُنِ شُهْرَةً في تاريخِ البَحْرِ .

كانَتْ سُفُنًا صَغيرَةً جِدًّا . ولَمْ يَكُنْ طَهْرُ السَّفينَةِ « سانتا ماريّا » يَزيدُ طُولُهُ عَنْ سَبْعينَ قَدَمًا . ولَمْ يَكُنْ حَجْمُ « بِنْتا » إلا مِقْدارَ نِصْفِ حَجْمِ « سانتا ماريّا » ، أَمّا « نينا » فكانَتْ أَصْغَرَ الثَّلاثِ ، ولَيْسَ فيها سِوَى ١٨ بَحّارًا .

كانَ على كولُمْبُسَ أَنْ يُبْحِرَ ، بِتِلْكَ السُّفُنِ الصَّغيرَةِ جِدًّا ، في بِحارٍ شَديدَةِ العَواصِفِ ، ومُجْهُولَةٍ لَمْ يَجْتَزْها أَحَدٌ مِنْ قَبْلُ ، ولَمْ يَتَوَقَّعِ العَوْدَةَ مِنْها بِسَلامٍ إلّا القَليلُونَ . ولَيْسَ مِمّا يُثيرُ الدَّهْشَةَ أَنَّهُ – بَعْدَ أَنْ حَصَلَ عَلَى السُّفُنِ – وَجَدَ صُعُوبَةً في إِقْناعِ الرِّجالِ بالإِبْحارِ فِيها .



لَوْلا مُساعَدَةُ الأَخوَيْنِ بِنزونَ لَكانَ القِيامُ بالرِّحْلَةِ مُسْتَحِيلًا جِدًّا . لَقَدْ شَجّعا بَحّارَةَ بالوسَ المُتَرَدِّدِينَ بالقَوْلِ والفِعْلِ مَعًا . وقَدْ عَرَضَ كِلاهُما نَفْسَهُ عَلَى كولمُبسَ لِلإِبحـارِ غَرْبًا نَحْوَ المَجْهُولِ .

كانَ كولمُبسُ مُسْتَعِدًّا لِتَجْنِيدِ بَحّارَتِهِ مِنْ بَيْنِ المُجْرِمِينَ المَوْجُودِينَ في سُجُونِ إِسبانيا، وقَدْ فازَ بِوَعْدٍ مِنَ المَلِكِ بإِعْطاءِ كُلِّ سَجِينٍ الحُرِّيَّةَ المُطْلَقَةَ إِذا أَبْحَرَ مَعَهُ . ولِحُسْنِ حَظِّهِ لَمْ يَكُنْ ذلكَ ضَرُورِيًّا .

لَمْ يَكُنْ تَجْمِيعُ البَحّارَةِ سَهْلًا . وكانَ العَدَدُ المَطْلُوبُ لِلسُّفُنِ الثّلاثِ تِسْعِينَ بَحّارًا . كانَ النّاسُ في ذلِكَ العَصْرِ مُتَدَيِّنِينَ جِدًّا ، لَيْسَ في إِسبانيا وَحْدَها ، بَلْ في جَمِيعِ أَنْحاءِ العالَمِ ، وقَدْ ظَنَّ كَثِيرٌ مِنْهُمْ أَنَّ المُغامَرَةَ لِدُخُولِ المَجْهُولِ عَمَلٌ شِرِّيرٌ . وبَعْضُهُمْ خافُوا الأَخْطارَ الّتي اخْتَرَعَهـا خَيالُهُمْ ، كالوُحُوشِ البَحْرِيَّةِ الهـائِلَةِ الحَجْمِ ، ودَوّاماتِ المُحِيطِ الغامِضَةِ .

ولكِنَّهُمْ ، في النِّهايَةِ ، لَمْ يَتَغَلَّبْ عَلَى مَخاوِفِهِمْ سِوَى الأَمَـلِ في الحُصُولِ عَلَى الجَوائِزِ الكَبِيرَةِ السَّخِيَّـةِ ، وسِوَى المَثَلِ الرّائـعِ ، الّذي ضَرَبَهُ لَهُمْ الرُّبّانانِ اللّذانِ كانا أَكْثَرَ رَبابِنَةِ البَحْرِ احْتِرامًـا في البَلْدَةِ .



أَصْبَحَ كُلُّ شَيْءٍ جاهِزًا بَعْدَ فَتْرَةٍ قَصيرَةٍ مِنَ الزَّمَنِ ، وحَمَلَتِ السُّفُنُ الثَّلاثُ مِنَ الطَّعامِ والمؤونَةِ ما يَكْفيها عامًا .

كانَتْ حِصَّةُ البَحّارِ الغِذائِيَّةُ اليَوْمِيَّةُ نَحْوَ نِصْفِ كيلوغرامٍ مِنَ البَسْكوتِ ، وثَلاثَمِئَةِ غرامٍ مِنَ اللَّحْمِ . ويُرْوَى أَنَّ السُّفُنَ كانَتْ تَخْتَزِنُ أَيْضًا كَمِّيّاتٍ كَبيرَةً مِنَ البَصَلِ ، والجُبْنِ ، والزَّيْتِ ، والخلِّ ، وَهِيَ مَوادُّ لا غِنَى عَنْها في البَحْرِ .

وعِنْدَما نُضيفُ إِلَى ذلِكَ ما كانَتْ تَحْمِلُهُ السُّفُنُ مِنَ الأَشْرِعَةِ ، والحِبالِ ، والقَذائِفِ الحَجَرِيَّةِ لِلْمَدافِعِ ، الَّتي كانَتِ السُّفُنُ تَتَسَلَّحُ بِها آنَذاكَ ، يَبْدُو لَنا أَنَّ تِلْكَ السُّفُنَ الصَّغيرَةَ كانَتْ مُحَمَّلَةً بِأَقْصَى ما لَدَيْها مِنْ طاقَةٍ .

لَمْ يَبْقَ عَلَيْهِمْ سِوَى شَيْءٍ واحِدٍ ، يَجِبُ أَنْ يَقُومُوا بِهِ قَبْلَ الإِبْحارِ ، هُوَ أَنَّهُمْ يَجِبُ أَنْ يُصَلُّوا للهِ جَميعًا ، بَحّارَةً ، ورِجالَ بالوسَ ونِساءَها . لِذا سارُوا جَميعًا في مَوْكِبٍ إِلَى ديرِ لا رابيدا ، لِيَسْأَلُوا اللهَ أَنْ يُبارِكَهُمْ في مَشْرُوعِهِمْ .

كانَ ذلِكَ الدَّيْرُ هُوَ المَكانَ الَّذي تَسَلَّمَ فيهِ كولمبُسُ رِسالَةَ المَلِكَةِ ، وكانَ الرّاهِبُ الصّالِحُ جوانُ بيريزُ ، الَّذي كَتَبَ لِلْمَلِكَةِ بِشَأْنِ الرِّحْلَةِ ، هُوَ الَّذي بارَكَ كولمبُسَ ورِجالَهُ .



أَصْدَرَ كولمبُسُ الأَمْرَ بِرَفْعِ الأَشْرِعَةِ ، يَوْمَ الجُمُعَةِ ، في الثّالِثِ مِنْ شَهْرِ آبَ ، مِنْ عامِ ١٤٩٢ ، قَبْلَ نِصْفِ ساعَةٍ مِنْ شُرُوقِ الشَّمْسِ .

وعِنْدَما ظَهَرَ النُّورُ كانَتِ الأَشْرِعَةُ قَدِ امْتَلأَتْ ، ثُمَّ ابْتَعَدَتِ السُّفُنُ الثَّلاثُ الصَّغِيرَةُ عَنْ رَصِيفِ المِيناءِ . لَقَدْ بَدَأَتْ رِحْلَةٌ بَحْرِيَّةٌ مِنْ أَكْثَرِ الرِّحْلاتِ في التّاريخِ أَهَمِّيَّةً .

كانَ البَحّارَةُ عَلَى ظَهْرِ السُّفُنِ مَشْغُولِينَ جِدًّا في تَثْبِيتِ الأَشْرِعَةِ ، ولَفِّ الحِبالِ ، وتَوْدِيعِ الحُشُودِ الكَبِيرَةِ الّتِي تَجَمَّعَتْ لِتَوْدِيعِهِمْ . وكانَتِ الزَّوْجاتُ والأُمَّهاتُ يَبْكِينَ ويُصَلِّينَ ، أَمّا الرِّجالُ فإِنَّهُمْ كانُوا يَخْشَوْنَ أَنْ يَكُونَ وَداعُهُمْ لِلْبَحّارَةِ آخِرَ عَهْدِهِمْ بِهِمْ ، وأَنْ تَكُونَ تِلْكَ النَّظْرَةُ هِيَ آخِرَ نَظْرَةٍ يُلْقُونَها عَلَيْهِمْ . فهذِهِ الرِّحْلَةُ البَحْرِيَّةُ لَمْ تَكُنْ عادِيَّةً كَتِلْكَ الرِّحْلاتِ الّتِي تُبْحِرُ فِيها السُّفُنُ مِنْ مَرْفَإٍ إِلَى آخَرَ مُحاذِيَةً للشّاطِئِ . لَقَدْ نَظَرَ جَمِيعُ المُوَدِّعِينَ إِلَى بَحّارَةِ « سانْتا مارِيّا » و « بِنْتا » و « نينا » في ذلِكَ الوَقْتِ ، كما كُنّا نَنْظُرُ إِلَى رِجالِ الفَضاءِ الأُوَلِ حِينَ انطَلَقُوا إِلَى القَمَرِ ، في رِحْلَتِهِمُ الأُولَى . ورِحْلَةُ البَحّارَةِ كانَتْ أَشَدَّ خَطَرًا ؛ لِأَنَّنا نَعْلَمُ أَنَّ القَمَرَ الّذي تَنْطَلِقُ إِلَيْهِ المَرْكَبَةُ الفَضائِيَّةُ مَوْجُودٌ .

لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مُوقِنًا بِنَجاحِ الرِّحْلَةِ ، وسَعِيدًا بِانْطِلاقِ السُّفُنِ ، واقْتِحامِها البِحارَ المَجْهُولَةَ ، سِوَى كريستوفَر كولمبُسَ ، الّذي أَصْبَحَ السَّيِّدَ المُطْلَقَ الآنَ ، دُونَ أَنْ يَسْتَطِيعَ أَحَدٌ إِيقافَهُ .



رُبَّما ظَنَّ كولمْبُسُ ، عِنْدَما أَبْحَرَ مِنْ بالوسَ ، أَنَّ مَصاعِبَهُ قَـدِ انْتَهَتْ . ولَمْ تَكُنْ تِلْكَ هِيَ المَرَّةَ الأُوْلَى الَّتي يُخْطِئُ فيها ظَنُّهُ .

سارَتِ الأُمُورُ في الأَيّامِ الثَّلاثَةِ الأُوْلَى عَلَى ما يُرامُ . كانُوا مُتَّجِهِينَ شَطْرَ جُزُرِ الكَنارِي ، وَهِيَ أَبْعَدُ جُزُرٍ مَعْروفَةٍ غَرْبًا ، حَيْثُ قَرَّرَ كولمْبُسُ الانْطِلاقَ إِلَى المَجْهُولِ مِنْها . وقَدْ كانَتْ « بِنْتا » أَسْرَعَ السُّفُنِ الثَّلاثِ ، فَسَبَقَتْها مَسافَةً كَبِيرَةً ، وأَشْرِعَتُها البَيْضاءُ تَظْهَرُ وتَخْتَفِي في الأُفُقِ الأَزْرَقِ الرَّمادِيِّ .

ثُمَّ وَقَفَ كولمْبُسُ فَجْأَةً ، بَيْنَما كانَ يَمْشِي عَلَى ظَهْرِ السَّفِينَةِ « سانْتا مارِيّا » . لَقَدْ أُصِيبَتِ السَّفِينَةُ « بِنْتا » بِضَرَرٍ ، فأُنْزِلَتْ أَشْرِعَتُها ، وسَقَطَتْ في أَوْدِيَةِ الأَمْواجِ دُونَ أَنْ تَجِدَ لَها مَخْرَجًا مِنْها . فانْدَفَعَتْ « سانْتا مارِيّا » نَحْوَها ، فبَلَغَتْها بِسُرْعَةٍ ، وعَرَفَ كولمْبُسُ أَنَّ جُزْءًا مِنَ الدَّفَّةِ قَدْ فُصِلَ عَنْها ، وأَنَّهُمْ يَحْتاجُونَ إِلَى مُدَّةٍ ما لإِصْلاحِها .

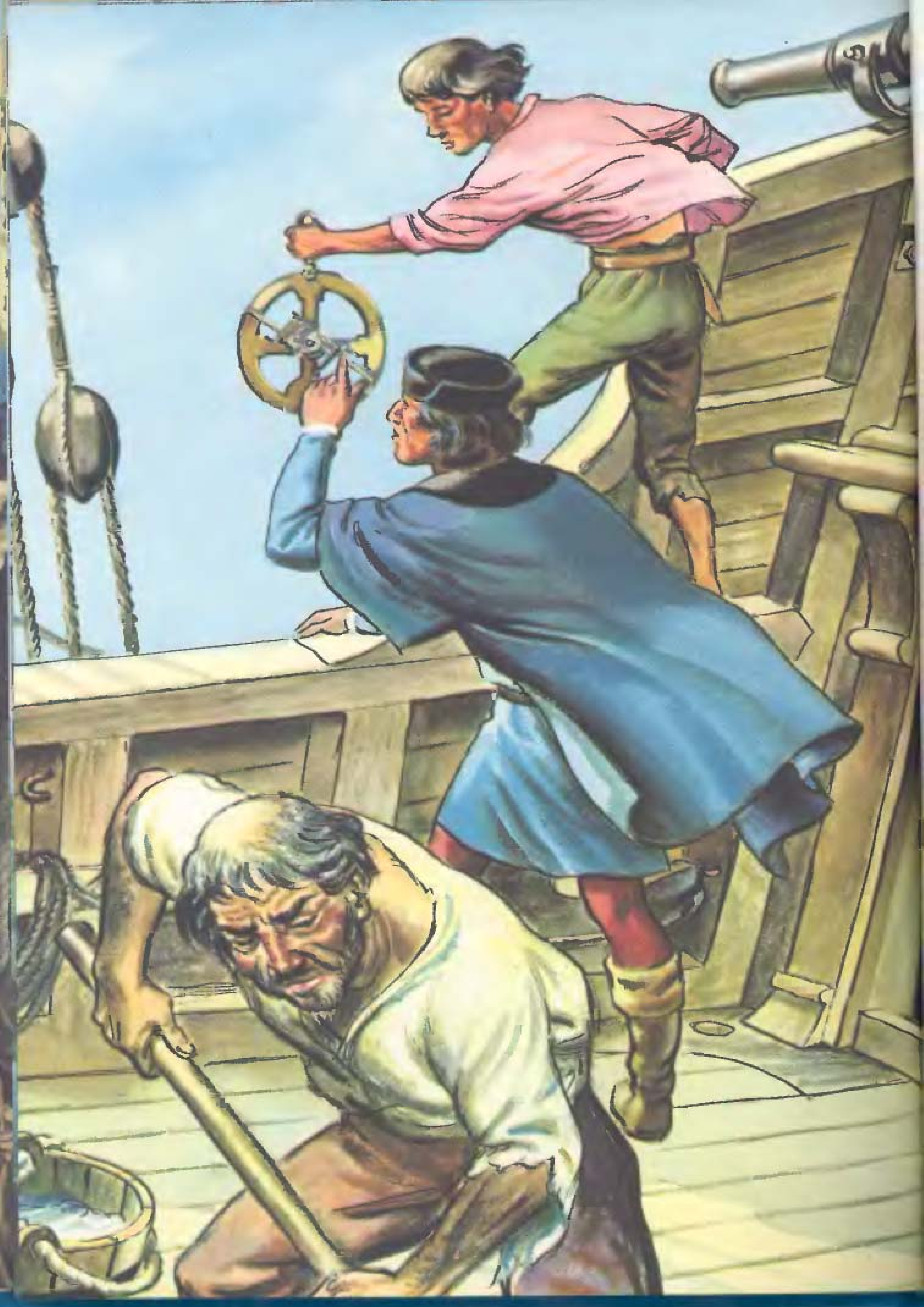
قَلِقَ كولمْبُسُ قَلَقًا عَظِيمًا ، لَمْ تَكُنِ الكارِثَةُ الَّتي حَلَّتْ بِدَفَّةِ « بِنتا » سَبَبَهُ ؛ بَلْ خَوْفُهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ البَحّارَةُ قَدْ تَعَمَّدُوا تَعْطِيلَ السَّفِينَةِ ؛ لأَنَّ شَجاعَتَهُمْ خانَتْهُمْ ، فأَمَّلُوا أَنْ تَقْضِيَ الضَّرورةُ بِرُجوعِ « بِنْتا » إِلَى بالوس لإِصْلاحِ دَفَّتِها .



إذا كانَتِ المحاوَلَةُ مُتَعَمَّدَةً ، فإنَّها لَمْ تَنْجَحْ . إنَّ كولمبُسَ قَدْ تَغَلَّبَ عَلَى صُعُوباتٍ كَثيرَةٍ جِدًّا ، ولَيْسَ مِنَ المَعْقُولِ أَنْ تُحَوِّلَهُ عَنْ هَدَفِهِ دَفَّةٌ مَكْسُورَةٌ . ثُمَّ واصَلُوا الرِّحْلَةَ إلى مادَيْرا وجُزُرِ الكناري ، حَيْثُ قَضَوْا شَهْرًا كامِلًا في إِصْلاحِ « بِنْتا » ، وتَغْييرِ طَريقَةِ وَضْعِ أَشْرِعَةِ السَّفينَةِ « نِينا » . وظَلُّوا هُناكَ حَتَّى اليَوْمِ السّادِسِ مِنْ أَيلولَ ، عِنْدَما ارْتَفَعَ شِراعُ « سانْتا مارِيّا » الأَكْبَرُ ، وانطَلَقُوا في رِحْلَتِهِمْ نَحْوَ الغَرْبِ .

مِنْ حُسْنِ حَظِّنا أَنَّ لَدَيْنا يَوْمِيّاتِ كولمبُسَ عَنِ الرِّحْلَةِ ، وهِيَ اليَوْمِيّاتُ الَّتي تَحْتَفِظُ بِها كُلُّ سَفينَةٍ تَمْخُرُ البِحارَ . لَقَدْ ظَلُّوا أُسْبوعًا يُحالِفُهُمُ التَّوْفيقُ التّامُّ ، وكانَ كولمبُسُ يُعَيِّنُ مَوْقِعَ السَّفينَةِ عَلَى خارِطَتِهِ ، ويَعْرِفُ المَسافَةَ الَّتي قَطَعُوها .

بَدَأَ كولمبُسُ يَحْتَفِظُ بِدَفْتَرَيْنِ لِيَوْمِيّاتِهِ ، سَجَّلَ في أَحَدِهِما عَـدَدَ الفَراسِخِ (الفرسخ نحو ثَلاثَةِ أَمْيالٍ) الحَقيقِيَّ ، الَّذي يَقْطَعُونَهُ كُلَّ يَوْمٍ ، وسَجَّلَ في ثانيهِما ، الَّذي كانَ يُريهِ لِلْبَحّارَةِ ، عَدَدًا أَقَلَّ . إِذْ إِنَّ كولمبُسَ لَمْ يُرِدْ أَنْ يَعْرِفَ بَحّارَتُهُ حَقيقَةَ المَسافَةِ الَّتي تَفْصِلُهُمْ عَنْ إسبانيا ، لِئَلّا يَخافُوا ويَرْغَبُوا في العَوْدَةِ .

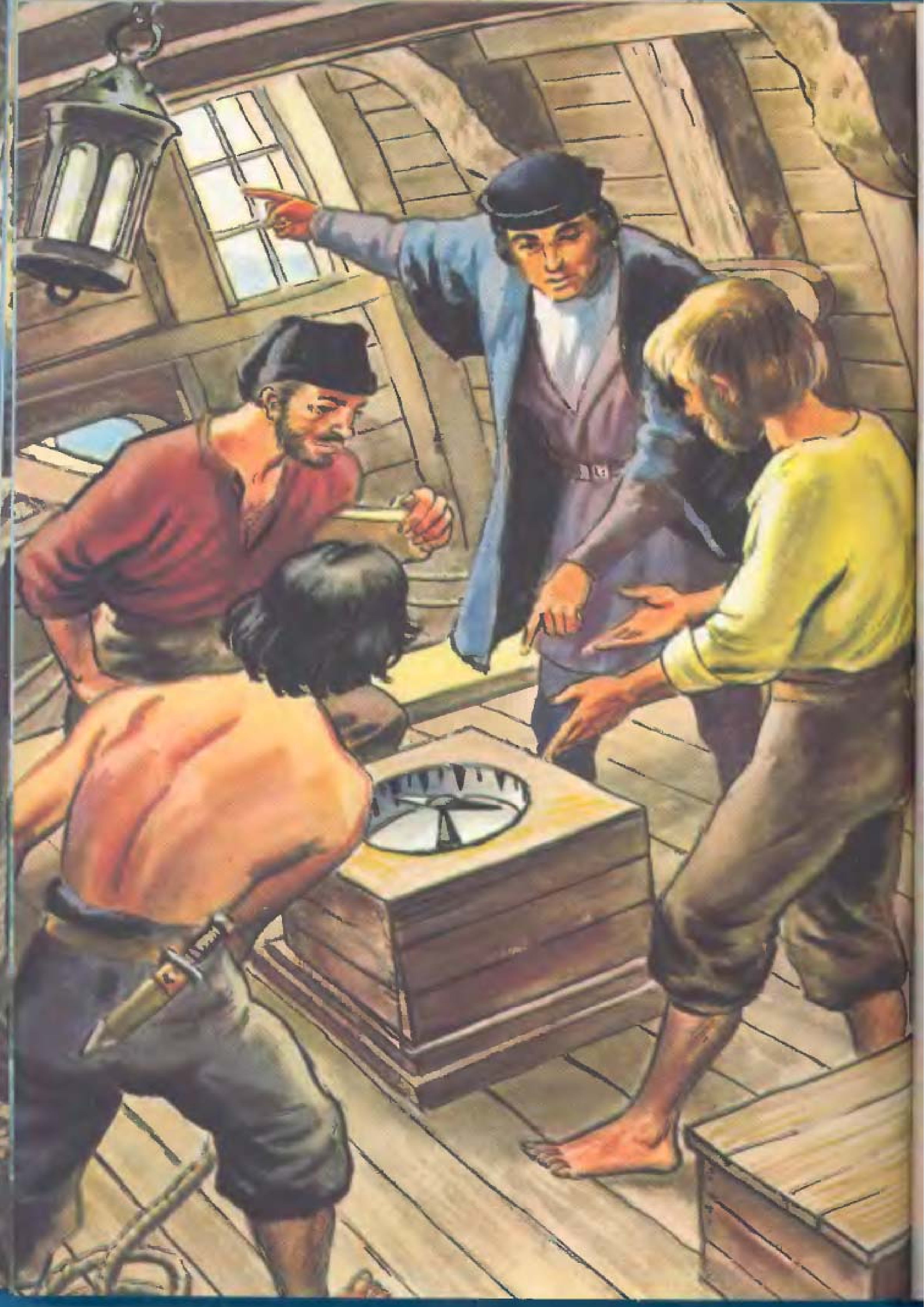


لاحَظَ كولمْبُسُ ، بَعْدَ سَبْعَةِ أَيّامٍ مِنْ مُغادَرَتِهِمْ جُزُرَ الكناري ، أَنَّ بُوصْلَةَ السَّفِينَةِ كانَتْ تَتَحَرَّكُ بِشَكْلٍ غَريبٍ . فإبْرَتُها ، عِوَضًا عَنْ أَنْ تَتَّجِهَ شَطْرَ النَّجْمِ الشَّمالِيِّ ، انْحَرَفَتْ قَليلًا شَطْرَ الشَّمالِ الغَرْبِيِّ . فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا عَنْ ذلِكَ لِلْبَحّارَةِ ، ولكِنَّ الإِبْرَةَ راحَتْ تَنْحَرِفُ قَليلًا يَوْمًا بَعْدَ آخَرَ .

وفي السّابِعَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ أَيْلُولَ ، كانَتِ الإِبْرَةُ قَدِ انْحَرَفَتْ كَثِيرًا جِدًّا عَنْ مَوْضِعِها العادِيِّ ، بِحَيْثُ لاحَظَ مُديرُ قِيادِ السَّفِينَةِ ذلكَ . فَتَجَمَّعَ البَحّارَةُ بِسُرْعَةٍ حَوْلَ الإِبْرَةِ ، وقَدْ ذَكَرَ كولمْبُسُ في كُنّاشَتِهِ (دفتَرِ يَوْمِيّاتِهِ) أَنَّهُمْ « خافُوا خَوْفًا شَديدًا . »

كانَ كولمْبُسُ كالبَحّارَةِ يَجْهَلُ سَبَبَ انْحِرافِ البُوصلَةِ الشَّديدِ . ولكنَّهُ كانَ الرُّبّانَ ، وعَلَيْهِ أَنْ يَقُولَ شَيْئًا يُطَمْئِنُ بِهِ رِجالَهُ . فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ سَبَبَ الانْحِرافِ لَمْ يَكُنْ خَطأً مِنَ البُوصْلَةِ ، بَلْ كانَ سَبَبَهُ النَّجْمُ الشَّمالِيُّ ، الّذي كانَ يَتَحَرَّكُ بَيْنَ حِينٍ وآخَرَ . فَصَدَّقَهُ البَحّارَةُ لِحُسْنِ الحَظِّ . وإِذا كانَ القَلَقُ قَدِ اسْتَوْلى عَلَى كولمْبُسَ ، كما هُوَ مُتَوَقَّعٌ ، فإِنَّهُ اسْتَطاعَ أَنْ يُخفِيَهُ إِخْفاءً تامًّا .

نَحْنُ نَعْلَمُ اليَوْمَ أَنَّ الشَّمالَ المَغناطيسِيَّ ، الّذي تُشيرُ إِلَيْهِ البُوصلَةُ ، لَيْسَ هُوَ الشَّمالَ الحَقيقِيَّ ، ويَخْتَلِفُ اتِّجاهُهُ باخْتِلافِ الأَماكِنِ عَلَى سَطْحِ الأَرْضِ . كانَ كولمْبُسُ يَجْهَلُ ذلِكَ .



رَضِيَ البَحّارَةُ بِما قالَهُ لَهُمْ كولمُبسُ فَتْرَةً مِنَ الزَّمَنِ . ولكِنَّهُمْ كانُوا يُعَبِّرُونَ عَنْ مَخاوِفِهِمْ ، بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ، حَتَّى أَصْبَحَ قِسْمٌ مِنْهُمْ عَلَى وَشْكِ التَّمَرُّدِ . أَرادُوا أَنْ يُلْقُوا كولمُبسَ في البَحْرِ ، ويَعُودُوا إِلَى إسبانيا .

لَقَدْ كانُوا جَمِيعًا يَبْحَثُونَ ، بِطَبِيعَةِ الحالِ ، عَنِ اليابِسَةِ غَرْبًا ؛ لِأَنَّ هُناكَ جائِزَةً كَبِيرَةً ، سَتُعْطَى لِأَوَّلِ رَجُلٍ يَرَى اليابِسَةَ . وفي مَساءِ أَحَدِ الأَيّامِ صاحَ أَحَدُ البَحّارَةِ قائِلًا إِنَّهُ رأَى اليابِسَةَ .

فَرَكَعَ كولمُبسُ وشَكَرَ اللهَ ، أَمّا بَحّارَةُ السُّفُنِ الثّلاثِ فقَدْ راحُوا يُرَتِّلُونَ تَرْتيلَةَ الحَمْدِ والشُّكْرِ . وظَلُّوا يَنْتَظِرُونَ بُزُوغَ الفَجْرِ بِقَلَقٍ شَديدٍ طُولَ اللَّيْلِ ، وعِنْدَما أَقْبَلَ الصَّباحُ لَمْ يَكُنْ هُناكَ أَرْضٌ . لَقَدْ كانَ الّذي رَآهُ البَحّارُ غَيْمَةً مُنْخَفِضَةً في الأُفُقِ .

جَعَلَتْ خَيْبَةُ الأَمَلِ هذِهِ البَحّارَةَ أَكْثَرَ شَوْقًا إِلَى العَوْدَةِ إِلى إسبانيا ، ولكِنَّهُمْ – لِحُسْنِ الحَظِّ – شاهَدُوا طُيورًا في الأُفُقِ . فَعادَتْ صُدُورُ الرِّجالِ إِلَى الانْشِراحِ ؛ لِأَنَّ كولمُبسَ أَكَّدَ لَهُمْ أَنَّ مِثْلَ تِلْكَ الطُّيورِ لا تَطيرُ أَبَدًا بَعِيدًا عَنِ اليابِسَةِ .

ظَلَّ البَحْرُ عَلَى هُدُوئِهِ ، وعادَ البَحّارَةُ فَتْرَةً مِنَ الزَّمَنِ إِلَى الرِّضَى والأَمَلِ .



حَدَثَ ذلِكَ في الخامِسِ والعِشْرينَ مِنْ شَهْرِ أَيْلولَ ، ومَعَ أَنَّ البَحّارَةَ لَمْ يَعْرِفُوا هذا التّاريخَ لِحُسْنِ الحَظِّ ، فَقَدْ كانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُبْحِرُوا غَرْبًا ثَمانِيَةَ عَشَرَ يَوْمًا أُخْرى قَبْلَ أَنْ يَرَوْا اليابِسَةَ .

كانَ كولمْبُسُ مُسْتَعِدًّا لِمُواصَلَةِ الرِّحْلَةِ ، ولَوِ اسْتَغْرَقَ ذلِكَ شُهُورًا كَثِيرَةً ، ولكِنَّ البحّارَةَ لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِمْ مِثْلُ إِيمانِهِ وصَبْرِهِ .

مَرَّ أُسْبوعٌ ، وتَلاهُ آخَرُ . وظَهَرَتْ طُيورٌ كَثِيرَةٌ أُخْرَى ، بَيْنَها طُيورٌ بَدَتْ أَنَّها بَرِّيَّةٌ . وأَصْبَحَ البَحّارَةُ لا يُصَدِّقُونَ أَنَّ تِلْكَ كانَتْ عَلامَةً مِنْ عَلاماتِ البَرِّ ، فَذَهَبُوا إِلَى كولمْبُسَ مُتَذَمِّرِينَ مِنْ طُولِ الرِّحْلَةِ ، وَطالَبُوا بِتَغْيِيرِ اتّجاهِ السُّفُنِ . فَحَثَّهُمْ كولمْبُسُ عَلَى الصَّبْرِ قَدْرَ استِطاعَتِهِ ، ولكِنَّهُمْ كانُوا أَيْضًا يُوشِكُونَ أَنْ يَثُوروا ، لولا ظُهُورُ عَلاماتٍ جَدِيدَةٍ تَدُلُّ عَلَى الاقْتِرابِ مِنَ البَرِّ ، أَيَّدَتْ رَأْيَ كولمْبُسَ .

وفي الحادي عَشَرَ مِنْ تَشْرينَ الأَوَّلِ ، وَجَدَ بَحّارَةُ « بِنْتا » خَشَبَةً ضَخْمَةً مَنْقُوشَةً تَعُومُ في الماءِ ، مَعَ غُصْنٍ يَحْمِلُ ثَمَرَ العُلَّيْقِ الأَحْمَرِ . كانَ الشَّيْئانِ بُرْهانًا عَلَى الاقْتِرابِ مِنَ البَرِّ أَقْوَى مِنْ بُرْهانِ الطُّيورِ ، وقَدْ شارَكَ البَحّارَةُ كولمْبُسَ في حَماسَتِهِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ . وبَدَأُوا يَشْعُرونَ أَنَّ الثَّرْوَةَ الّتي وَعَدَهُمْ كولمْبُسُ بِها قَدْ أَصْبَحَتْ في قَبْضَةِ أَيْدِيهِمْ .



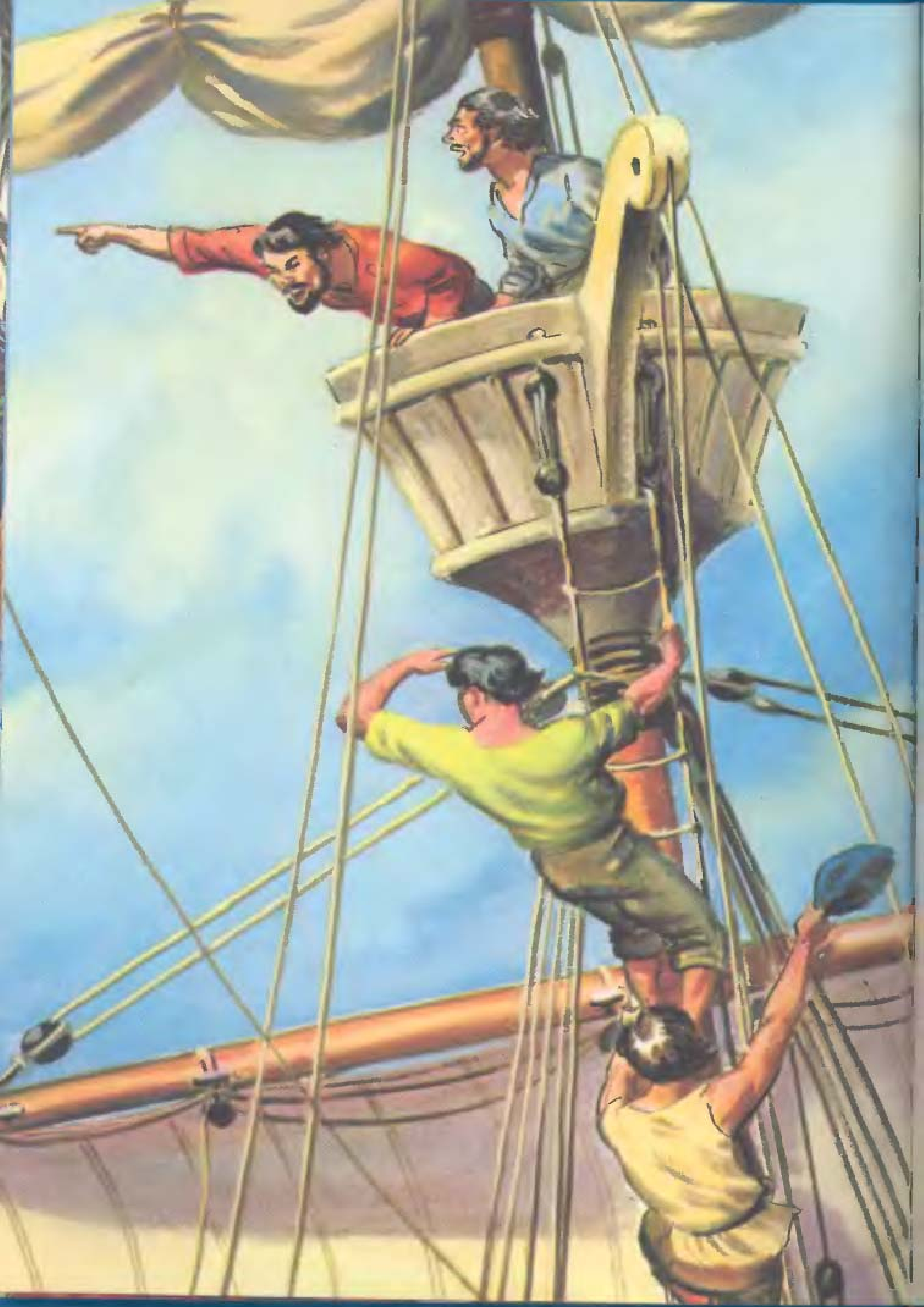
لَقَدْ تَحَقَّقَتْ آمالُهُمْ ، ففي السّاعَةِ العاشِرَةِ مِنْ تِلْكَ اللَّيْلَةِ كــانَ كولُمْبُسُ واقِفًا في مَكانٍ مُرْتَفِعٍ مِنْ مُؤَخَّرِ السَّفينَةِ « سانْتا مارِيّا » ، ومُحَدِّقًا إلَى الغَرْبِ ، كما كــانَ يَفْعَلُ لَيْلًا ونَهارًا مُدَّةَ خمسةِ أَسابيعَ طَويلَةٍ . فَرَأى فَجْأَةً نورًا ضَعيفًا جِدًّا آتِيًا مِنْ مَكانٍ بَعيدٍ .

كانَ مُنْخَفِضًا جِدًّا ، لا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ نُورًا صادِرًا مِنْ نَجْمٍ . وعَدا ذَلِكَ كانَ يَتَحَرَّكُ كما لو كانَ إِنْسانٌ يَمْشِي وَهُوَ يَحْمِلُ مِشْعَلًا .

دَعا كولُمْبُسُ أَحَدَ ضُبّاطِهِ ، فَرَأى النُّورَ أَيْضًا ، ولكِنَّهُ عِنْدَما اسْتَدْعَى الثّالِثَ كانَ قَدِ اخْتَفَى . فَلَمْ يَسْتَطِعْ كولُمْبُسُ أَنْ يَقُولَ ما إذا كانَ النُّورُ وَهْمًا ، أَوْ حِيْلَةً مِنْ حِيَلِ البَحْرِ .

ظَلَّ كولُمْبُسُ طُولَ اللَّيْلِ في ذَلِكَ المَكانِ المُرْتَفِعِ . وكانَتِ السُّفُنُ قَدْ خَفَّفَتْ مِنْ سُرْعَتِها ، لِكَيْ لا تَصْطَدِمَ في الظَّلامِ بالشّاطِئِ ، إذا كانَ ما بدا لَهُمْ بَرًّا حَقيقِيًّا . وبَدَأَ الظَّلامُ خَلْفَهُمْ يَنْقَشِعُ بالتَّدْريجِ ، ولكِنَّ الجِهَةَ الغَرْبِيَّةَ ظَلَّتْ كُلُّها غارِقَةً في الظَّلامِ . وازْدادَ إِرْهاقُهُمْ لِعُيُونِهِمُ المُوَجَّهَةِ إِلَى الغَرْبِ . وكانَ نِصْفُ البَحّارَةِ فَوْقَ الحِبالِ ، ونِصْفُهُمُ الآخَرُ فَوقَ جانِبِ السَّفينَةِ المُمْتَدِّ فَوْقَ سَطْحِها العُلْوِيِّ .

ثُمَّ صَرَخَ بَحّارٌ واقِفٌ عَلَى أَعْلَى سارِيَةِ « نِينا » قائِلًا : « اَلْبَرَّ ، اَلْبَرَّ ! »

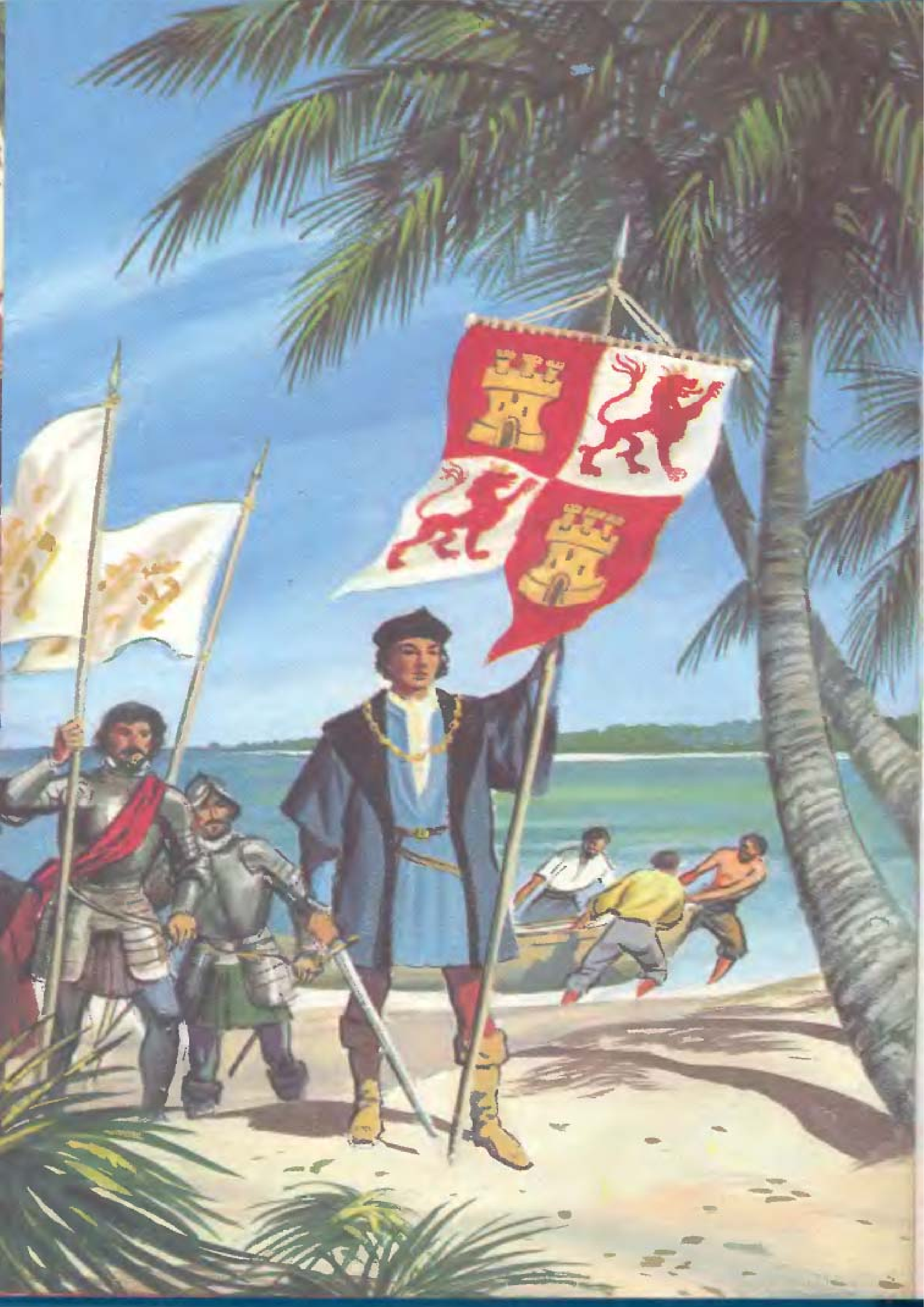


لَقَدْ وَصَلُوا إِلَى البَرِّ أَخيرًا ، وانْتَهَتِ الأَسابيعُ الطَّويلَةُ الّتي كانُوا خِلالَها لا يَرَوْنَ حَوْلَهُمْ سِوَى البَحْرِ ، يُحيطُ بِهِمْ مِنْ كُلِّ جانِبٍ . وظَنَّ كَثيرٌ مِنَ البَحّارَةِ أَنَّهُمْ لَنْ يَرَوا البَرَّ ثانِيَةً ، وكانُوا جَميعًا قَلِقِينَ وخائِفينَ ما عدا كولمْبُسَ . ونَسْتَطيعُ أَنْ نَتَخَيَّلَ كَمْ أَنْعَشَتْ نُفوسَهُمْ رُؤْيَةُ الأَشْجارِ الخُضْرِ .

يَجِبُ أَنْ نَتَذَكَّرَ أَنَّ الرِّجالَ الّذينَ أَبْحَرُوا مَعَ كولمْبُسَ لَمْ يَغِبِ البَرُّ مِنْ قَبْلُ عَنْ أَبْصارِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ بِضْعِ ساعاتٍ ، أَوْ بِضْعَةِ أَيّامٍ عَلَى الأَكْثَرِ .

كانَ كولمْبُسُ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ ، إِذا أَبْحَرَ غَرْبًا ، سَيَصِلُ إِلَى الهِنْدِ ، الّتي أَغْلَقَ التُّرْكُ طَريقَها البَرِّيَّةَ . وظَنَّ أَنَّ الجُزُرَ الّتي وَجَدَها كانَتْ تَقَعُ في أَمْكِنَةٍ قَريبَةٍ مِنَ الهِنْدِ ، وكانَتْ غَلْطَةُ كولمبسَ ، الّتي اقْتَرَفَها مُنْذُ نَحْوِ خَمْسِمِئَةِ سَنَةٍ ، هِيَ السَّبَبَ في تَسْمِيَتِها بِجُزُرِ الهِنْدِ الغَرْبِيَّةِ ، الاسْمِ الّذي ما زالَ يُطْلَقُ عَلَيْها إِلَى الآنَ .

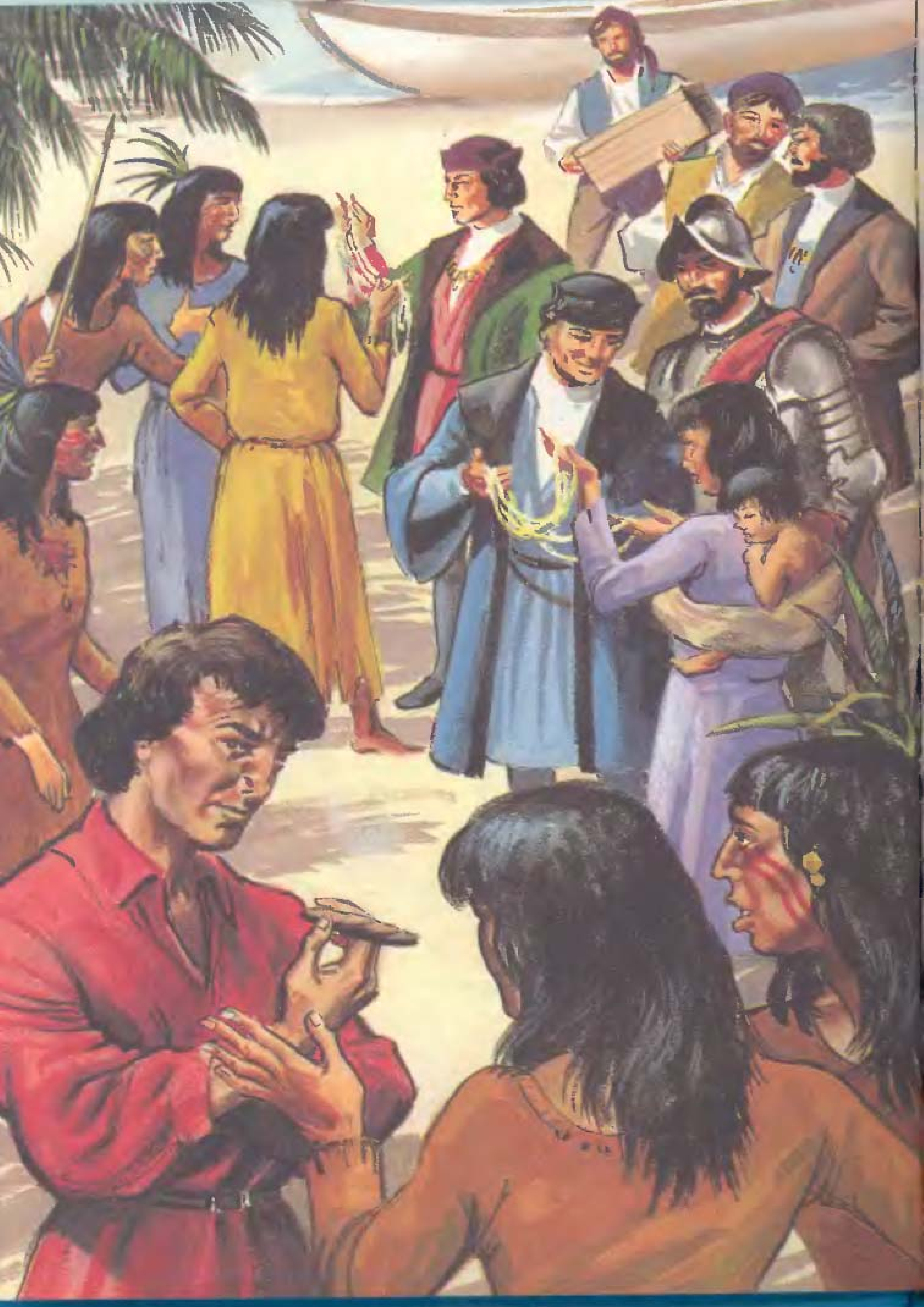
نَزَلَ كولمْبُسُ إِلَى البَرِّ بِشَكْلٍ رَسْمِيٍّ ، لابِسًا أَفْخَرَ الثِّيابِ ، وحامِلًا العَلَمَ الإسبانيَّ ، ونَزَلَ مَعَهُ الأَخَوانِ بِنزونُ وكَثيرٌ مِنَ البَحّارَةِ . وما كادَ يَطَأُ أَرْضَ الشّاطِئِ ، حَتّى رَكَعَ وقَبَّلَ الأَرْضَ ، ودُمُوعُ الفَرَحِ تَتَساقَطُ مِنْ عَيْنَيْهِ . وبَعْدَ أَنْ شَكَرَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى النَّجاحِ الّذي نالُوهُ ، استَوْلَى عَلَى الجَزيرَةِ بِاسْمِ مَلِكِ إسبانيا ومَلِكَتِها .



وَجَدَ كولمُبسُ ورِجالُهُ أَنْفُسَهُمْ عَلَى جَزيرَةٍ كَبيرَةٍ مُسْتَوِيَةٍ ، نَمَتْ فيها أَشْجارُ الغاباتِ عَلَى حافَةِ خَليجٍ أَزْرَقَ . وتُحيطُ بِها مِنْ كُلِّ جانِبٍ أَزْهارٌ مُلَوَّنَةٌ ، لَمْ يَرَ مِثْلَها أَحَدٌ مِنْهُمْ مِنْ قَبْلُ . كانَتْ تِلْكَ الجَزيرَةُ جَنَّةً بَعْدَ قَضاءِ أَربَعَةِ أَسابيعَ في البَحْرِ .

لَمْ يُظْهِرِ المُواطِنُونَ أَيَّةَ عَلامَةٍ مِنْ عَلاماتِ الخَوفِ . لَمْ يَكُنْ لَوْنُ بَشَرَتِهِمْ أَبْيَضَ ولا أَسْوَدَ ، وكانَتْ وجُوهُهُمْ تَعْلُوها أَصْباغٌ عَجيبَةٌ . وكانُوا يَحْمِلُونَ رِماحًا قَصِيرَةً ، مَصْنُوعَةً مِنَ البُوصِ (القَصَبِ) ، وفي رُؤُوسِها أَسْنانُ كَلْبِ البَحْرِ (سَمَكِ القِرْش) . كانَ مِنَ الواضِحِ أَنَّهُمْ لَمْ يَرَوْا رِجالًا بِيضًا مِنْ قَبْلُ ، ولَمْ تَكُنْ لَهُمْ صِلَةٌ بالمَدَنِيَّةِ الغَرْبِيَّةِ . وعِنْدَما أَهْدَى كولمُبسُ لَهُمْ عُقُودًا مِنَ الخَرَزِ ، فَرِحُوا بِها كَثيرًا كما يَفْرَحُ الأَولادُ باللُّعَبِ الجَديدَةِ .

كانَ الإسبانِيُّونَ قَدْ رَأَوْا المُواطِنِينَ مِنْ قَبْلُ عَلَى شاطِئِ أَفريقيا ، ولكِنَّهُمْ رَأَوْا الآنَ شَيْئًا جَديدًا عَلَيْهِمْ . وكانَ رِجالُ هذِهِ الجَزيرَةِ المَجْهُولَةِ ، يُمْسِكُونَ بِلُفافاتٍ صَغيرَةٍ مِنْ أَوراقِ الأَشْجارِ البُنِّيَّةِ ، التي أَشْعَلُوا فِيها النِّيرانَ ، ثُمَّ وَضَعُوها في أَفْواهِهِمْ ، ومَلأُوا بِدُخانِها رِئاتِهِمْ ، ثُمَّ نَفَخُوهُ في الهَواءِ . كانَتْ تِلْكَ أَوَّلَ مَعْرِفَةِ الرَّجُلِ الأَبْيَضِ بالتَّبْغِ .

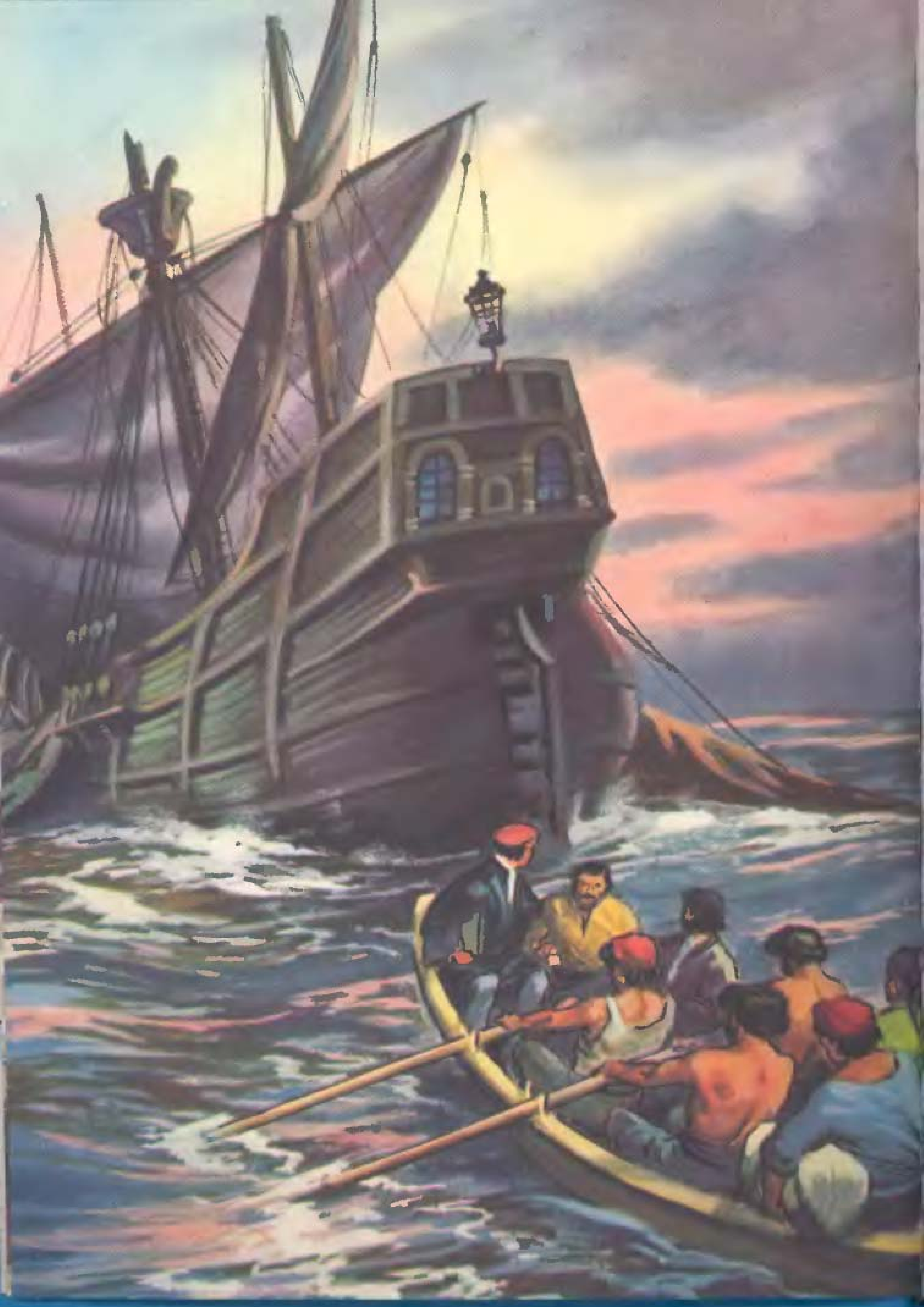


كانَ مِنْ أَحَدِ أَهْدافِ تِلْكَ الرِّحْلَةِ البَحْرِيَّةِ ، اكتِشافُ جُزُرِ الذَّهَبِ الخُرافِيَّةِ ، الَّتِي يَعْتَقِدُونَ أَنَّ فِيها جِبالًا مِنَ الذَّهَبِ الصُّلْبِ .

كانَ بَعْضُ مُواطِني سان سلفادورَ يَلْبَسُونَ حُلًى ذَهَبِيَّةً صَغِيرَةً ، وقَدِ اسْتَفْسَرَ مِنْهُمْ كولُمْبُسُ ، قَدْرَ استِطاعَتِهِ ، عَنْ مَصْدَرِ ذلِكَ الذَّهَبِ . فأَشارُوا إِلَى الجَنُوبِ ، وقالُوا إِنَّهُ جاءَ مِنْ جَزيرَةٍ كَبِيرَةٍ سَمَّوْها كُوبا . فَرَفَعَ كولُمْبُسُ المَراسِيَ ، وأَبْحَرَ لِلْبَحْثِ عَنْهُ .

تَصَوَّرَ أَنَّ تِلْكَ الجَزيرَةَ هِيَ اليابانُ . وظَلَّ أَكْثَرَ مِنْ شَهْرَيْنِ يُبْحِرُ مِنْ جَزيرَةٍ إِلَى أُخْرَى ، ويَنْزِلُ في كَثيرٍ مِنْها ، ويَضُمُّها إِلَى أَمْلاكِ إِسْبانيا . لَمْ يَجِدِ اليابانَ ولا جَزيرَةَ الذَّهَبِ . وعِوَضًا عَن ذلِكَ أَصابَتْهُ كارِثَةٌ كادَتْ تُحَطِّمُ مَشْرُوعَهُ كُلَّهُ .

جَنَحَتِ السَّفِينَةُ « سانْتا مارِيّا » إِلَى البَرِّ ، بِسَبَبِ إِهْمالِ البَحّارِ المسؤولِ عَنِ الدَّفَّةِ ، إِلَى جَزيرَةٍ سَمّاها كولُمْبُسُ سان دُومِنْجو . وأَصْبَحَتِ السَّفِينَةُ بِسُرْعَةٍ حُطامًا كامِلًا ، فاضْطُرَّ كولُمْبُسُ إِلَى أَن يَنْتَقِلَ هُوَ ، وما يَسْتَطيعُ إِنْقاذَهُ مِنَ المُؤَنِ ، إِلَى السَّفِينَةِ « نِينْا » . ثُمَّ أَبْحَرَ كولُمْبُسُ إِلَى إِسْبانيا ، بَعْدَ أَنْ تَرَكَ كَتيبَةً مِنْ أَرْبَعِينَ رَجُلًا في قَلْعَةٍ بَناها عَلَى الشّاطِئِ .



وبَعْدَ رِحْلَةٍ بَحْرِيَّةٍ كَثِيرَةِ الْمجازَفاتِ ، دَخَلَتِ السَّفِينَةُ « نِيْنا » ميناءَ بالوسَ ، بَعْدَ ثَمانِيَةِ أَشْهُرٍ مِنْ مُغادَرَتِهِ . فَازْدَحَمَ الميناءُ بِسُرْعَةٍ بالنّاسِ الّذينَ لَمْ يَتَوَقَّعُوا أَبَدًا أَنْ يَرَوْا ثانِيَةً كولمُبسَ أَوِ السَّفِينَةَ .

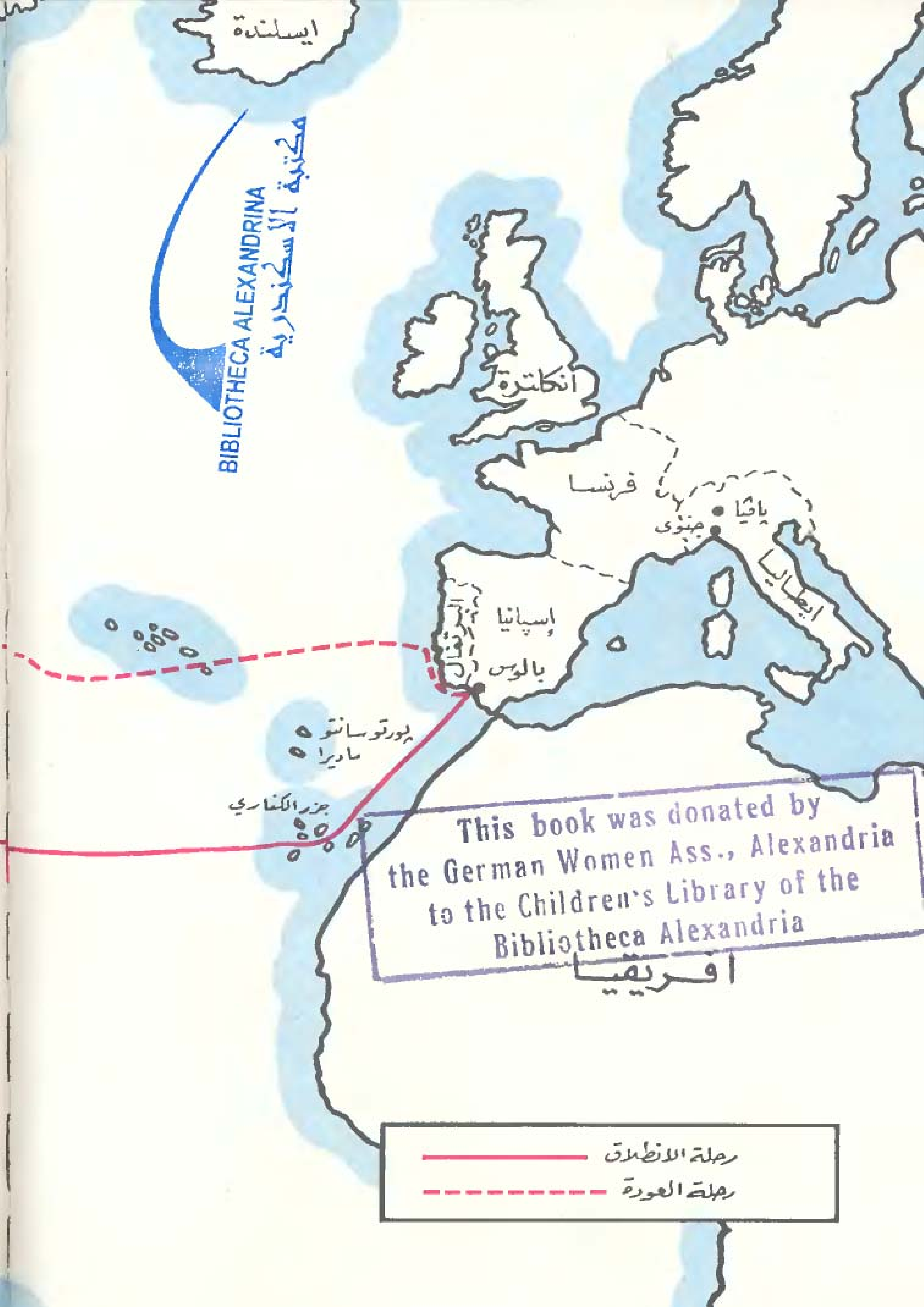
لَمْ يَبْقَ كولمُبسُ طَوِيلًا في بالوسَ ؛ لِأَنَّ المَلِكَ والمَلِكَةَ كانا في بَرْشَلونَةَ ، فَأَسْرَعَ عَبْرَ إسبانيا ، حامِلًا الغَنائِمَ الّتي جاءَ بِها مَعَهُ .

دَخَلَ بَرْشَلونَةَ دُخُولَ الظّافِرِينَ ، وَوَراءَهُ بَحّارَتُهُ يَحْمِلُونَ البَبْغاواتِ ، والطُّيُورَ والوحُوشَ الغَرِيبَةَ الأُخْرَى ، إِضافَةً إِلَى حُلِيِّ مُواطِنِي الجُزُرِ المُكْتَشَفَةِ حَدِيثًا وأَسْلِحَتِهِمْ . ولكِنَّ الّذي اسْتَرْعَى انْتِباهَ الحُشُودِ الإسبانِيَّةِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ ، كانَ المُواطِنِينَ أَنْفُسَهُمْ ، إِذْ أَحْضَرَ كولمُبسُ مَعَهُ سِتَّةً مِنْهُمْ إِلَى إسْبانيا لِكَيْ يَتَنَصَّرُوا .

أَصْبَحَ كولمُبسُ الآنَ بَطَلَ السّاعَةِ . فَفِي البَلاطِ المَلَكِيِّ ، حَيْثُ سَخِرَ مِنْهُ رِجالُ البَلاطِ مِنْ قَبْلُ ، اسْتُقْبِلَ اسْتِقْبالًا حافِلًا جِدًّا ، وأُجْلِسَ إِلَى يَمِينِ المَلِكِ . وعُيِّنَ أَمِيرالًا في الأُسطولِ الإسبانِيِّ ، ومُنِحَ لَقَبَ نَبِيلٍ .

وعِنْدَما جَلَسَ كولمُبسُ هُناكَ ، وَهُوَ في قِمَّةِ مَجْدِهِ العظيمِ ، لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَدْ شَعَرَ بِأَنَّ صَبْرَهُ ، وعَزِيمَتَهُ ، وعَمَلَهُ الشّاقَّ الطَّويلَ قَدْ كُوفِىءَ عَلَيْها في النِّهايَةِ .





BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية
This book was donated by
the German Women Ass., Alexandria
to the Children's Library of the
Bibliotheca Alexandria

الرّحلة الأولى
لكريستوفر كولمبُس

السلسلة التاريخية



Series 561 Arabic

في سلسلة كتب المطالعة الآن أكثر من ٢٠٠ كتاب من الموضوعات تناسب مختلف الأعمار . اطلب البيان الى

مكتبة لبنان - ساحة رياض الصلح -